فؤاد قاعود

الانعزالي

شاعر العامية الكبير الراحل فؤاد قاعود لم يجد حظه من الشهرة والانتشار مثله أبناء جيله – الأبنودي، وحجاب، ونجم، وسمير عبد الباقي وغيرهم، وقد اختار قاعود – في أواخر أيامه – أن يعيش في عزلة بعيدا عن الأضواء قانعاً بما قدمه من أعمال إبداعية للساحة الأدبية، وهذه العزلة ساهمت في عدم معرفة الأجيال الجديدة بأشعاره.

يقول «قاعود» (محبوبتي غنيوة مصرية/ ضفايرها فرعين الليل وعيونها عسلية/ محبوبتي غنيوة لعبية/ سمعوها شطين النيل/ وقالوها مراكبية/ محبوبتي نجماية صبح يستفتح بها الصياد/ يضمن يومه ترنيمة رب/ ترتيلة راهب/ يصحى لها العصفور من نومه/ وأنا قلبي حباية قمح/ سوتها الشمس/ ورمتها لعصفورة شقية، الخ).

هكذا يصدح قاعود بأشعاره العامية الرائقة والمتميزة، والتي تنفد مباشرة إلى القلب.

قدمه صلاح جاهين

فقد ظهرت موهبته الشعرية متجلية منذ الصغر، وبرز بين زجالى الإسكندرية، وأصبح من أعمدة الزجل بها وهو فى السادسة عشرة من عمره عام ١٩٥٢م، بعدها انتقل إلى القاهرة لقضاء فترة التجنيد، وتعرف إلى الراحل صلاح جاهين، فقدمه إلى قراء «صباح الخير» من خلال بابه الشهير «شاعر جديد يعجبني» عام ١٩٦٠م، حيث قال عنه: «التقيت بفؤاد قاعود فوجدته شاباً صغيراً جداً، ولكن شيئا فى عينيه كان عجوزاً جداً، وأشعاره سمعتها فوجدتها تنبض بنبض عجيب، ولها نبرة حادة مقلقة، فهو حين يسخر يصبح كالسياط، وحين يبث مكنونات قلبه تنفجر من قلبه الينابيع الحارة والعواصف الثلجية، وتمطر كلماته فى النفس مطراً مر المذاق ومسكراً فى آن، فقلت له: «هذا هو الشعر». لأن القصيدة عند قاعود تنهل من تراث العامية، السابق عند بيرم التونسي، وفؤاد حداد، وتستشرق آفاق الشعر الحديث، فى وحدة حارة ومشتعلة برفض الواقع القبيح بكل مظاهره، والطموح لعالم آخر أجمل، ولم يكتف جاهين بتقديمه لقراء المجلة بل قدمه للأديب الكبير الراحل إحسان عبد القدوس، والذى أعجب به هو الآخر وشاعريته، فعينه محرراً بمجلة «صباح الخير» عام ١٩٦٣م.

قدم قاعود العديد من المواهب الشعرية فى بابه الشهير الفرازة، كما استمر يقدم مجلة صباح الفل داخل مجلة «صباح الخير» لأكثر من ١٤ سنة، وحملت شخصيات شعرية لكل منها قالبه الخاص وتميزه وأن اشتركوا جميعا فى نقد عيوب المجتمع وكشف سلبياته وهم «جوعان بن هفتان ونكد الدولة سخطان وفرقع لوز»، وكان – رحمه الله – يرى أن شعر العامية لا يقل شأناً عن شعر الفصحى، بل يرقى فى أحياناً كثيرة عنه وكان لا يقبل سوى مصطلح «شعر العربية المصرية» فيقول: «إننى أرفض تماماً تسمية شعرنا بشعر العامة، فلا يخفى على أحد ما تحمله الكلمة من معانى التدنى بل والأمية، ذلك أن العامة هم الأولون فى أسفل السلم الاجتماعى والثقافى بالتالي، أمام الآخرون فهم علية القوم، وهذه مغالطة من أكبر المغالطات شعرياً»، لذا ترى قصائده الشعرية ترتقى باللغة العامية – أن جاز أن نسميها – إلى مشارف الفصحى، بل وتتفوق عليها فى التصوير والمجاز، فيقول فى قصيدة «فراشة:

(وهدى الأتوبيس قصاد المحطة/ وطارت فراشة وحطت على الكرسى جنبى/ وصفرت يا كمسرى/ دى صفارة دى ولا ضحكة مرح/ سمعها الأتوبيس وطار فى بهجة وفرح/ يبوس الطريق/ وتبعت عيونه بريق/ يرش حواشى الرصيف بالدهب/ وفجأة الأتوبيس وقف/ وقلبى وقف/ وطارت فراشتى ف ثانية/ وأصبحت فى دنيا تانية).

نبوءته

كان إنتاج فؤاد قاعود ثريا ومتنوعاً بين القصائد التى تحمل رؤية مكثفة ولها أعماق فلسفية والقصائد الزجلية التى تخاطب وجدان الشعب الكادح، وفور قراءتك لقصيدة من قصائده تشعر أنه صاحب بصمة وصوت متفرد فى تجربته الشعرية المتوهجة والقوية، ولم يكتف النقاد بتشبيهه ببيرم التونسى وبعده حداد، بل جعلوه امتداداً لصلاح جاهين بوصفه أول من قدمه للقراء، بل تعدى هذا التشبيه بالمتنبى لأن قاعود كثر فى شعره الفخر والتعالى وتأثر بالمهجرين فنحا نحوهم فى الشعر الفكري، وكان يرى أن العامية المصرية قادرة على استيعاب كل الصور والرؤى الشعرية العالمية.

وكان رحمه الله يحمل هموم الوطن فوق كتفيه، وينتمى بأشعاره للفقراء والبسطاء من أبناء هذا الشعب، وهو القائل: «المجتمع زى الرصيف وسخ فيه ناس بتعرق ع الرغيف وفى ناس بتعرق م التنس» كانت هذه هى رؤية قاعود للمجتمع الذى ساد فيه الظلم ووصل إلى ذروته، لدرجة أنه أصبح – على حد تعبيره – مجتمعاً «وسخاً» مثله مثل الرصيف الذى تعلوه القاذورات، لأنه يفرق بين الغنى والفقير الذى دائما ما يدفع فاتورة المجتمع الظالم كاملة.

لذا وجد الشيخ إمام عيسى ملاذه فى أشعار الراحل ومن أهم الأغنيات التى كتبها له «أحزان قرد» كما وجد

ملاذه أيضاً فى أشعار رفقاء دربه نجم والأبنودي، وعندما كتب قاعود قصيدة «الجرس» ونشرها كانت سببا مباشرا فى دخوله المعتقل أثناء فترة حكم عبد الناصر، فقد فهمت منها المخابرات المصرية آنذاك، أن الراحل يشكك فى قدرة النظام على حرب حقيقية، وما لبث أن حدثت بعدها نكسة ٦٧ وتحققت نبوءته.

وتقول القصيدة: «ترن ترن/ أنا الجرس فرس بدون حرس/ أصول وأقول وأرن/ وأنذر القطيع من هول فظيع/ يطيعنى أو يضيع/ وصوتى للربيع يحن/ ترن ترن/ على الشمال عاشق النضال حلال/ وع اليمين يا جن»، ورغم شعور قاعود بالحزن والمرارة تجاه المجتمع إلا أنه لم يفقد الأمل فى غد أفضل سيأتى عما قريب ويؤكد الناقد الكبير فاروق عبد القادر هذه الرؤية من خلال تقديمه لديوان المواويل لقاعود حيث يقول: «الحقيقة التى يجب قولها هنا، ودون تردد، هى أن الشاعر لم يفقد الأمل أبدا فى أن تشرق يوماً الشمس التى توزع الدفء والضوء على الجميع، وهذا ما يرجح عندى القول بأن القهر ليس كونياً، لكنه قهر موضوعى مرتبط بعوامل محددة فى الواقع الاقتصادى – السياسى – الاجتماعي، قهر لا يتعالى على قدرة الإنسان على الفعل والتغيير، أن ملامح العالم الشعرى لفؤاد قاعود تتحدد أكثر فأكثر على ضوء هذه البلورات الصغيرة، هذه الفرائد، حيث انتظمها خيط واحد هو الذى

ينتظم إبداع الشاعر على العموم: «القهر، الرفض، التماس سبل الخلاص، أشعار قاعود إذن هى ثمرة ناضجة من شعر العامية المصرية، لشاعر أثر أن يعتزل ضجيج السوق، فوقف بعيداً، لا يحول شئ بينه وبين أن يقول كلمته، مؤمنا بأن لا شئ يأتى ويذهب دون أثر».

يرى عبد الرحمن الأبنودى أن قاعود شاعر منفرد وليس مقلداً لأحد ولا متأثرا به، وهذا ما يتضح من شهادته التى قالها عام ١٩٧٨م: «لم يتأثر قاعود بأحد، بل كان صوتاً جميلًا يحمل إيقاعات خاصة به تماماً» وكان إنساناً متفرداً أيضاً أراد فى أواخر أيامه أن يعيش فى هدوء، فطالما رفض حتى نشر مجموعاته الشعرية، زاهداً حتى فى حق شخصى بالمطلق، وهو حق عليه للقارئ أيضاً، فقد كتب فى مقدمة أعماله الكاملة بعد أن وافق على نشرها: « لا أرى فى نشر أعمالى شيئا ضرورياً، وقد ظللت مقتنعاً بهذا الأمر فترة طويلة من حياتى حتى عرف عنى هذا، إن العلاقة بين المبدع والناشر شائكة بطبيعتها، فبينما يرى الناشر فى المبدع شخصاً ناكراً للجميل يرى الآخر فيه لصاً، لذلك، فأنا أحب الضوء الخافت واعتبره رومانسيا وهادئاً، أما الضوء القوى فهو يشكل لأمثالي، ممن لا يمتلكون سوى وجه واحد، كارثة حقيقية!».

هكذا كانت فلسفة قاعود فى الحياة، ولأنه كان يؤمن بأن الجسد فان ولا يبقى من الشاعر سوى كلمته هى التى

ستخلده وأنه ميت لا محالة وقد رحل عنا وعمره سبعين عاماً وهو القائل: «من يوم ميلادى عرفت أنى ح أموت/ وفهمت أن الموت كمالة الحياة/ وعشان كده/ وضعت حكمى بين فواصل صمت/ وكأنى مركب فى المحيط بتسير/ جزئية ف البحر الكبير/ محتوم تغير شكلها ف اليم/ عارف بأنى ح أموت/ أو راح تموت هيئتي/ لكن هتفضل للأبد كلمتى».

★ نشر فى جريدة القاهرة فى ٩ يونية ٢٠٠٩

obeikandl.com